المحاضرة الثامنة

مقرر: الفكر والدين في مصر القديمة- الفرقة الثالثة – شعبة الآثار المصرية – قسم الآثار

عنوان المحاضرة: "الرمزية الدينية لبعض العناصر الزخرفية في الفن المصري القديم "

شهدت مصر طوال تاريخها استخدام مُجسمات رمزية ثرية. وقد استخدمت هذه الصور الرمزية لأغراض الزينة ، غير أن مهمتها روحية بالأساس ، ودينية وسحرية من حيث طبيعتها. والحقيقة إن الرمز في حد ذاته ليس مُهماً ، بل المهم هو ما تجمع حوله من الأفكار التي تُعطي له مغزى. والرموز بطبيعتها هي بؤرة التأملات الخيالية أو العواطف. وهي تنتمي إلى عالم الأسطورة ، حتى ولو كانت من أصل دنيوي. وليست الرموز وحدات قائمة بذاتها ، فهي قابلة للامتزاج والتداخل حتى تخلق أشكالاً مُعقدة مُحيرة. بيد أن امتزاج الأشكال ليس أمراً اعتباطياً ، ولكننا نحن الذين لا نفهم القواعد التي تحكم استعمالها ، إذا التبس علينا فهمها.

ومن هنا كانت أهمية الإشارة إلى مجموعة من الرموز التي شاع توظيفها في المُجسمات الفنية المُختلفة في مصر الفرعونية. وسنلقي الضوء فيما يلي على أهم هذه الرموز وأشهرها.

(1) عنخ : يعتبر أكثر الرموز المصرية شعبية ، وأقدمها ، وأشهرها ، وهو يمثل الحياة ، هدف المصريين من وجودهم كله. وهناك من يرى أن الدائرة في هذا الرمز تمثل الشمس ، بينما يمثل الصليب الأرض ؛ وبارتباطهما يرمز "عنخ" إلى الاتحاد بين الإله والإنسان ، والسماء والأرض. وكان الملوك يرتدون "عنخ" التي تمد الفرعون بالحماية والحياة الأبدية. وصنعت المرايا ، وهي تسمى أيضاً "عنخ" على هيئة الرمز الذي حملت اسمه غالباً.

(2) العين : في مطلع التاريخ لم يكن الإله الأعلى عند المصريين سوى صقر ، وكانت عينه اليمنى هي الشمس وعينه اليسرى هي القمر. ومن المؤكد أن المصريين حينما صوروا عين الإله رسموا عين صقر وليس عيناً آدمية ، وقد اعتبرت العينان وحدتين مُنفصلتين. وبمعنى آخر لم تكن العين المُقدسة عيناً واحدة ، بل اثنتين الأولى هي العين اليمنى ، وهي عين الخالق الأصلية ، وهي تجسد الشمس والثانية هي العين اليسرى وتجسد القمر.

ففيما يتعلق بالعين الأولى تعتبر رمزاً للقوة المُدمرة وللضوء المعشي للإبصار وللنار وللعواطف التي يُمكن أن توصف بتلك الصفات ، أي الحنق والغضب الجامح. وذلك بحكم كونها عين للصقر أحد رموز الشمس.

وقد كان الصقر بدوره أحد الأشكال التي تجلى فيها الإله رع. لذا كانت العين على كوكبنا الأرضي رمزاً للملكية بمعناها الدال على القوة المُجردة ، بينما كانت في الكون عينا للرب وتمثيلاً لحرارة الشمس اللافحة. وتصديقاً لما سبق فقد ورد بالتعويذة رقم 316 من متون التوابيت : " *أنا عين حور .. التي يثير مرآها الفزع ربة القتال الجبارة المُفزعة ... التي تتقمص هيئة الضوء الوهاج ...*".

ولما كانت العين قد جاءت من الإله الأعلى ، لذا عده المصريون والدها. وتعتبر العين أيضاً الإلهه الأم ، لأن سائر البشر خلقوا من دموعها التي انهمرت حينما تملكها الغيظ ، لذا تعتبر العين والدة الملك ، أو هي الأم الأولى.

ولما كانت العين هي حية الكوبرا التي تزين تاج الملك أو جزءاً منه ، يمكننا أن ندرك كيف أمكن للمصري أن يزين التاج بنفس الإلهة التي يعتبرها في الوقت ذاته أماً للملك.

أما العين الثانية فهي عين حور بن إيزة التي انتزعها ست أثناء المعركة الكبرى، وهي تجسد القمر ، وقد أطاح بها ست خلف حافة العالم ، فذهب تحوت روح القمر وحاميه وعثر عليها راقدة في الظلام الخارجي. ومن الواضح أنه عثر عليها مُهشمة ، وأحضرها ثم أعاد تجميعها حتى كون منها البدر. فأصبحت wADt "واچت" ، لذا فقد ورد بالتعويذة رقم 325 من متون التوابيت على لسان تحوت:
"*لقد وجدتها* (وهي الآن) *كاملة ومعدودة وسليمة ، لذا يمكنها أن تتوهج في السماء*". فحينما أطاح ست بالعين ، غمر الظلام السماء. وهو رمز لمحاق القمر وللهلال. وتعد عودة توت بأجزائه تمثيلاً لأطوار نمو الهلال حتى يصبح بدراً كاملاً. أما البدر فيرمز إلى أن كل شئ بات على ما يُرام. ولما سبق فقد اعتبر المصري القديم العين اليسرى - عين حور "واچت"- رمزاً قوياً للعلاج ، والكمال الأعلى ، لهذا استخدمت كتميمة للأموات والأحياء معاً.

(3) **زهرة اللوتس "سيشن" :** كانت زهرة اللوتس رمزاً للبعث ، والحياة ؛ ربما لأن أوراقها تُغلق في الليل ، وتتفتح مع شروق الشمس ، هذا فضلاً عن أنها رمز للبهجة والسرور ، ويؤكد هذا المغزى أن زهرة اللوتس استخدمت كمخصص لكلمة tfn ، أو tfnn بمعنى " يسر القلب " ، أو " مسرور ". كما ساد الاعتقاد أن "رع" لم يكن ليوجد من دون استنشاقه العبير اللطيف لزهرة اللوتس. واعتقد المصريون أن زهرة اللوتس عند ارتدائها كتميمة ، تضفي على مُرتديها الشباب الخالد والبهجة الدائمة.

(4) **البردي:** شعار الوجه القبلي ، يرمز للعالم وهو ينشأ من المُستنقعات البدائية. وتقول الأسطورة إن أعمدة شاهقة من البردي تحمل السماء. وكان البردي رمزاً للميلاد ، والفرح ، والحيوية ، والشباب ، كما أنه يرمز أيضاً لمعاني القوة ، والحماية ، والثبات. وقد مثل شعار اللوتس والبردي مُتداخلان ، رمزاً لتوحد أو لتعانق الأرضين ، الوجه القبلي والوجه البحري. وهو ما يُعرف بشعار الـ "سماتاوي".

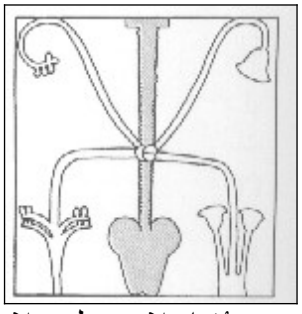

نبات اللوتس والبردي مُتداخلان حول علامة الـ smA سما

(5) **نبات البوص "سوت" :** فمنذ عصر الأسرة الأولى ، كان نبات البوص رمزاً للوجه القبلي والملك.

(6) **شن:** الرمز شن يمثل اللانهائية والأبدية ؛ لأنه ليس له بداية ولا نهاية. وجاءت كلمة "شن" من "شنو" (التي تحيط). و"شن" هو أصل الخرطوش ، الإطار الحامي البيضاوي الذي

يحوط اسم الفرعون. (وكلمة خرطوش فرنسية أطلقها جنود نابليون على أظرف البارود التي يستخدمونها). وقد مدت الدائرة الكاملة لتناسب الاسم ، وتمكن الروح من الحياة طالما لم ينقطع رسم الدائرة.

وخلال عصر الدولة الحديثة ، صممت التوابيت الحجرية الملكية على هيئة خرطوش حتى تحمي الجسد وتضمن له الخلود. وغالباً ما تظهر "الرخمة" المُقدسة ممسكة "شن" بين مخالبها. وربما من السياق السابق فإن شن أخذت مضمون الحماية لإبعاد كل العناصر العدائية أو المؤذية من الإسم الملكي.

(7) **سا:** يُعتقد أن معنى الحماية الذي تقدمه هذه العلامة مرجعه إلى أنها في أصلها مستمدة من الحزام العريض الذي يلف الكتف لحماية راعي القطيع ، وربما تمثل طوق نجاة من البردي استخدمه القدماء راكبي قوارب النيل. كما يمثل الرمز "سا" الحماية أثناء الولادة. وغالباً ما تصور الإلهة "تاورت" وهي تضع براثنها فوق هذا الرمز ، حيث أنها إحدى الإلهات الحارسات أثناء الولادة. كما مثل المعبود بس - في قطعة فنية رائعة - بمقبرة توت عنخ آمون بجسد آدمي ورأس أسد يضع يده اليسرى على هذه العلامة كناية عن دوره الحامي أو الحارس

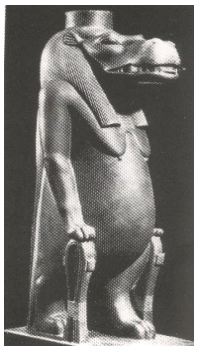

تاورت ترتكز على اثنتين من علامة سا

(8) **آخت:** رمز الأفق ، حيث تظهر الشمس ، وهي تشرق أو تغيب بين قمتي الجبلين. ومثل هذا الرمز أهمية كونية للمصريين القدماء. فقد صورت الشمس باعتبارها "الحارسة" التي تشرف على الجبال التي تحمل السماوات.

(9) **نوب:** الكلمة والرمز الدال على "الذهب" ، المعدن المقدس ، لحم الآلهة. وهو يمثل الخلود ، والملكية ، كما يمثل الطاقة الشمسية.

(10) **الجعران:** لما كان مفهوم البعث جوهر الديانة والمعتقدات المصرية ، فقد جسدت عدة رموز فكرة البعث. ومن بين أشهر رموز البعث ، التي تعود للدولة القديمة ، خنفساء الجعران ، التي عبدت باعتبارها "خبري-رع" وهو إله خالق لذاته، ويصور غالباً على هيئة إنسان برأس جعران. ولما لم يكتشف خبراء الحشرات المصريين القدماء بيض الجعران الذي يخرج من الأرض ، فقد بدا أنه يوجد نفسه بنفسه في هذا العالم ، وهكذا جسد مفهوم التجدد الذاتي

الدائم. وكان ميلاده أيضاً رمزاً لرحلة الشمس اليومية عبر السماء ؛ حيث يدحرج الجعران كرات من الروث والطين ويتغذى عليها ، وأصبح هذا السلوك رمزاً "لتقلب الشمس اليومي في السماء".

وصنع العديد من التمائم على هيئة أشكال مُختلفة من الجعارين. وبحلول عصر الاضمحلال الأول ، بدأت زخرفة السطح السفلي من الجعران أيضاً.

وصنعت جعارين ذات أجنحة بغرض تأمين سلامة المرور إلى العالم السفلي. وتهدف جعارين القلب إلى الحيلولة دون ظهور أي شر على السطح بينما يقف المتوفى أمام محكمة "أوزير". وغالباً ما تنقش تعاويذ للمُساعدة في جعل القلب صادقاً عندما يوضع على الميزان مقابل ريشة "ماعت". واعتقدوا أن وضع تميمة على هيئة جعران فوق قلب المومياء ، يضمن البعث والوجود الأبدي للمتوفى.

(11) تيت : الأصل الفعلي لعقدة إيزة غير معروف ، لذلك فمبدئياً يُحتمل إنها نوع من علامة عنخ حيث أنها قريبة الشبه منها ، ما عدا أن الأذرع المستعرضة فيها تنحني لأسفل. وهناك من يرى أنها تمثل "ربطة إيزة" أو "دم إيزة" أو "زنار إيزة". وتقول الأسطورة أن إيزة أخفت حور من ست بربط زنارها حوله ، فغطى الطفل وحماه. وهكذا جسدت "تيت" الحماية ، وارتديت كتميمة. وعلى أي حال فقد كانت "تيت" أو عقدة الملابس أو الجلد رمزاً عاماً للإلهه أيزة.

(12) عمود جد: هناك من يرى أن هذه العلامة تمثل شكل عمود مكون من سيقان بردي مربوطة. وقد تكون هذه العلامة تصويراً لتعريشة تحيط بحزمات قمح مربوطة أو ربما تمثل عمود فقري آدمي ، ومن ثم فاستعمال العلامة يتضمن مفهوم الاستقرار. وقد ارتبط عمود جد منذ الدولة القديمة بالإله بتاح ، وفي مقبرة نفرتاري في دير المدينة ، يُرى فيها بتاح واقفاً في شبه مقصورة مع عمود جد خلفه (لوحة1) ويُلاحظ أن تاج أو قمة الدعامة المتقدمة للكشك تأخذ شكل عمود جد في هذه المجموعة ، ويحمل الإله العصا ذات الشكل المتميز ، وتتكون أيضاً من علامات جد مع العنخ والواس. ولكن خلال عملية التمثيل أو المُحاكاة والتوفيق بين المُعتقدات ، نجد الإله بتاح تساوى تماماً مع إلهي العالم السفلي سوكر وأوزير ، وحوالي بداية الدولة الحديثة ، فإن جد قد استعمل بتوسع كرمز لأوزير ويبدو أنه اعتبر كتمثيل أو تصوير للعمود الفقري لذلك المعبود.

وكان يُعتقد أن "جد" يحتوي على خصائص حامية ومقوية. واعتبر أيضاً رمزاً لشجرة الطرفاء المقدسة التي احتوت وحمت الصندوق الذي ضم جسد "أوزير". لهذ اعتبرت شجرة الطرفاء مُقدسة تكريماً لأوزير.

وعلى أي حال إن فكرة عمود جد تكمن في انتصابه قائماً ، إذ إن الإنتصاب في وضع رأسي يعني الحياة ، والتغلب على قوى السكون التي يشيعها الموت والتحلل. ويوحي انتصاب عمود جد باستمرار الحياة في الدنيا.

بيد أن رفع العمود لم يكن آخر فصول الدراما ، بل كان الكهنة يقومون بإلباس بدن العمود نقبة وتثبيت بعض الريش في أعلاه ، أي كان يُعامل معاملة إله حي، إلى الحد الذي دعاهم في نماذجه المُتأخرة إلى رسم عيون إنسانية وتلوينها حتى يتدعم الشبه بينه وبين أوزير.

وتعني كلمة جد الثبات والدوام. وإذا أخذنا ذلك في الاعتبار لكان من السهل علينا أن نتبين السبب الذي دعا المصريين إلى اعتباره عموداً لتثبيت الكون أو رفع السماء كما كان رمزاً

للعودة للحياة. ويعتبر الجمع بين الرمزين چد ، وتيت إشارة إلى الاتحاد بين أوزير وإيزة ، وهذا الاتحاد بين الذكر والأنثى له مغزاه.

بتاح داخل مقصورة قمة دعامتها الأمامية على شكل عمود چد (معبد نفرتاري)

عمود جد مُشخص (معبد سيتي الأول بأبيدوس).

عمود جد بشكل أوزير (من بردية با-دي-أمون)

(13) النخلة: رمزت إلى الخصوبة ، وارتبطت بمعبودات مثل رع ونوت وحتحور. ولقد كانت النخلة ترسم بوضوح على الأواني المصنوعة من الطمي التي ترجع إلى عصور ما قبل الأسرات والتي كانت تستخدم كمتاع للمقبرة . وكان نخيل البلح مقدساً بصفة خاصة للإله " رع " ، وذلك بساقه الطويل ، والتاج من الأغصان التي تشبه أشعة الشمس والذي كان بمثابة المكان الذي جسد الإله نفسه فيه ، وربما يفسر هذا الارتباط بالإله الشمس أيضاً السبب في أن أسطون النخيل الذي يشبه شجرة نخيل البلح ، ظل شائعاً على نطاق واسع خلال الفترتين اللتين انتشرت فيهما عبادة الشمس بقوة ، وهما : في الدولة القديمة أثناء الأسرة الخامسة ، وفي عصر الدولة الحديثة خلال فترة حكم اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة . وجدير بالذكر أن النخلة قد اعتبرت رمزاً للإلهة الشمس في الفن العربي القديم ، كما كانت رمزاً للشمس عند السومريين أيضاً .

(14) السوط أو المدراس اليدوي: كان أداة لدرس القمح ، ولكن عندما يقبض عليه الفرعون بيده اليسرى ، يمثل خصوبة الأرض وازدهارها.

(15) عصا أو صولجان الراعي "حقا" : رمز القيادة والتوجيه والحماية لشعب الفرعون. وعندما يمسكه الفرعون في يده اليمنى فهو تجسيد لفكرة الحكم. وقد استخدم في السحر ، لاستحضار طاقة وقوة الآلهة خلال الاحتفالات والطقوس.

(16) الصولجان "واس": يرمز إلى سلطة الفرعون وهيمنته على الشعب. واعتقدوا أن عصا الصولجان "واس" ستمثل ست الذي تشبهه. وعلى أي حال فطبيعة هذا الصولجان مُبهمة فهو إما مصبوغ بروح حيوان مبجل ، أو ربما ببساطة عصا الراعي ، أو حتى عضو إخصاب الثور.

ويتكون هذا الصولجان من سهم يتفرع عند القاعدة ويعلوه قطاع صنارة مستعرض غالباً يكون بشكل رأس بعض المخلوقات. طبقاً لإحدى النظريات ، فإن القاعدة المتفرعة للصولجان قد تمثل أرجل حيوان ، والسهم المركزي قد يُفهم إذن أنه جسد مخلوق أو رقبة طويلة لما يُشبه

الزرافة. والرأس هي الجزء الوحيد من الصولجان الذي يُشاهد دائماً بملامح حيوانية ، وبينما هذه التفاصيل دائماً تشبه صورة حيوان ست ، ومع ذلك فليس هناك أي دلائل تبين أن هذا الإشتراك أو الإرتباط ليس صورة متحورة.

(18) الكوبرا: إلهة أطلق عليها المصري القديم "أوتو" ، ولقد نُعِتَتْ بـ " وادچيت" أي الخضراء ، وكانت عبادتها منتشرة في "بيت أوتو " أو " بوتو " كما سماها الإغريق ، وهي مدينة تقع في الإقليم السادس من أقاليم مصر السفلى . وكانت هذه الإلهة منذ عصر ما قبل الأسرات حامية لملك مصر السفلى ، واحتفظت بهذا الدور بعد اتحاد الأرضين (مصر العليا والسفلى) وغالباً ما يُمثل الملك وقد توج جبهته شكل لكوبرا رأسها قائم وجسمها ملتف .

وقد أعتقد أنها ترد الشر عن جبين الفرعون ، فتبعث بسموم من نار ، وتطلقها على وجه كل من يحاول الاعتداء عليه. وكان كاهن الملك يدعوها في صلاته أن تكون جحيماً على أعداء الفرعون.

ويبدو أنه كان يُنظر إليها على أنها كوبرا الإله نفسه وقد منحها بفضله للملك فقد جاء ضمن نص تتويج تحوتمس الثالث ـ الوارد على الحائط الجنوبي الخارجي للغرف الواقعة جنوب مقصورة المعبد ـ معبد الكرنك ما يلي:

" (سطر 10) . . رع *نفسه عيني وُمنِحتُ تيجانـ[ه] (التي) على رأسه وكوبراه ثُبِتَتْ* (سطر 11) *(فوق) [حاجبي]* . ." مما يؤكد أن الكوبرا كانت توضع في الأصل على جبين رع فهي عينه التي أطلق عليها "ربة النار".

ولذلك فهي ترمز إلى الحماية من كل شر. وتقول الأسطورة أنها توفر الحماية من الأعداء وتدمرهم بالنار التي تنفثها. ورمزت الكوبرا للحكمة ، والسلطة ، والملكية ، والقداسة. وهي رمز للمعبودة "واچت" ، وكان الثعبان رمزاً واضحاً للملكية والتجدد ، لأنه يسقط جلده ويجدده ذاتياً. ويقول رندل كلارك أنه لما كان من الممكن لرمز يدل على الفزع أن يندمج مع آخر ، لو كانت كلمتاهما من جنس واحد – أي واچت – أدمج المصري العين في صورة حية الكوبرا ذات اللدغة السامة وهي غاضبة ومنتصبة. وكانت الكوبرا تحمي التاج ، ولذا تصور متصلة بمقدمة الرأس أعلى جبهة الملك مباشرة. ومن ثم تبرز أمامنا معادلة الديانة المصرية الأساسية : العين = اللهب = الآلهة المدمرة = حية الكوبرا = التاج.

وهناك ما يقدم لنا تفسيراً منطقياً آخر لعلاقة الكوبرا بعين الإله ، فتروي أحد الأساطير أن الإله قد أرسل عينه - التي تعتبر في ذات الوقت ابنة له - إلى المياه الأزلية لإرجاع ولديه شو وتفنوت ولكنها حين عادت وجدت أن أخرى قد احتلت موضعها في وجه الإله ، وكان هذا هو السبب الرئيسي لغضب العين ، فتعذر على الإله الأعلى ارضاء العين إرضاءً تاماً وعلى نحو مُستديم ، وحينما استخدم الإله المعادلة السابقة حولها إلى حية كوبرا تلتف حول رأسه حتى تدرأ عنه أعداءه.

وعلى أي حال كانت الكوبرا الثعبان الأنثوي المثالي ، وكانت وادچيت أولى الإلهات التي مُثلت في هيئة الحية ، غير أن الحية المشرعة تشير إلى استقامة أمور الكون ، ويعني اسمها "اعرت" المُنتصبة أو القائمة. وهي تمثل القوى الكونية التي ترفع الأشياء ، وهي صفة مُستمدة من اسمها. ومن أكثر الرموز الشائعة الحية المنتصبة التي تقبض على صولجان أو رمز لرخاء الملك أو الإله. ومن الرموز الأخرى الكوبرا التي تحمل الشمس على رأسها.

وبعد كل ما تقدم يتبين لنا أن الرموز السابقة تلقي الضوء على كثير من جوانب المعتقدات الدينية وبعض ملامح الحياة السياسية عند المصري القديم فضلاً عن الحياة الاقتصادية مُتمثلة في المواد التي صنعت منها المُجسمات الفنية المُختلفة التي دخلت الرموز السابقة في تكوينها.

وفي الحقيقة إن مُعظم القطع الفنية التي تركتها لنا الحضارة المصرية مُتأثرة غالباً بالحاجة الدينية أو العقائدية للمتوفى في العالم الآخر ، خاصة فكرة البعث ، ومن ثم فقد رأى ضرورة تزويد مقبرته بكل ما تحتاجه في حياته في العالم الآخر ومن جهة أخرى فقد كان يؤمن بوجود قوى خفية تسيطر على النظام الكوني فكان يعمل إما لإرضائها أو تجنباً لشرها وذلك بتقديم الهدايا من القطع الفنية المُختلفة ، وهكذا نجد أن الإنتاج الفني لم يكن لمجرد الفن في حد ذاته وإنما كان من أجل تحقيق غرض ديني.

(19) اللحية : تدل اللحية المُستعارة التي يرتديها الفراعنة والآلهة فقط على الحيوية ، والملكية ، والقوة ، والخواص الكونية. وتشير لحية الفرعون إلى أنه ليس من هذا العالم.

أنتهت المحاضرة،،،

خالص التمنيات بالتوفيق
د.صابر محمد صادق
أبريل 2020.